بناء الدولة وضرورة تفكيك الفكر المتطرف

الأستاذ الدكتور/ سليم علوان
أمين عام دار الفتوى بالمجلس الإسلامي الأعلى في أستراليا
أستراليا

الحمد لله الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد سيد ولد عدنان، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان. أما بعد..،

فيشير بعض المحللين السياسيين إلى أنّ العلاقات الدولية ترتبط ارتباطًا مباشرًا بوجود الدولة، فلا علاقات دولية بدون دولٍ مستقلة ومعترف بها دوليًّا، لا سيما من قبل منظمة الأمم المتحدة؛ حيث ينبغي أن تكون كل دولة مستقلة خاضعة لأحكام وقوانين وبنود ما يسمى بالقانون الدولي العام، وأي نزاع يحصل بين دولتين أو أكثر يمكن معالجته بالطرق القانونية والتحكيم الدولي أمام محكمة "لاهاي" الدولية.

وإذا كانت العلاقات الدولية اليوم – ونحن في القرن الحادي والعشرين– قائمة على أساس القوة، أي القوة: العسكرية، والاقتصادية، والسياسية، فإن الكثير من المتخصصين في هذا المجال يشيرون إلى أن علم العلاقات الدولية وعلم الدبلوماسية توأمان.

ومن خلال تاريخ الحضارة العربية الإسلامية نجد مقدمات أساسية للعلاقات وللسياسة الخارجية الدولية، كيف لا، والنبي ﷺ كان يرسل الدعاة والمبعوثين إلى كافة الأقطار، وإلى

الملوك والرؤساء، وكان ﷺ يرسل مع الصحابة الرسائل التي دعت إلى عبادة الله وحده والإيمان برسالته عليه الصلاة والسلام، ففي معرض الحديث والكلام عن الإسلام والعلاقات الدولية نتذكر قول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[1]، فلو تفكرنا في معنى هذه الآية الكريمة لوجدنا فيها أنّ الله لا يحب الغلوّ في الدين، بل يوصينا بالتوسط والبعد عن الغلو.

ولعلّ أبرز ما يهدّد العلاقات الدولية اليوم آفة ليست بالجديدة لكنها تستّرت باسم الدين واشتدّ خطرها، وتعدّدت أسماء حركاتها والشعارات التي تدعو إليها، وكثر الساعون في ركبها، ألا وهي ظاهرة التطرف؛ لذا وحرصًا منا على علاقاتنا مع الشعوب الأخرى، ونصرة منهج الاعتدال الذي هو طريق السلامة والأمان، وحرصًا على الشباب والأجيال الصاعدة من الوقوع في شباك التطرف وحبائله؛ عمدنا إلى ولوج هذا الموضوع وكلنا أمل أن يلقى اهتمامًا بالغًا وآذانًا مصغية وقلوبًا واعية.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه ينبغي أن نميز بين التدين الذي هو التزام بأحكام الدين، والتطرف الذي هو غلوّ وتجاوز وبعد عن معاني الشريعة السمحاء .

ولعل أكثر الأفكار المتطرفة تأثيرًا اليوم في ساحة العمل على امتداد الوطن الإسلامي هما فكران: فكر يدعو إلى الجمود بتكفير كل من قام بعمل حديث لم يكن في زمن رسول الله ﷺ ، وفكر يزعم الوصاية على الإسلام وأنه يريد إنشاء المجتمع المسلم فيكفر كل البلاد الإسلامية.

أما أصحاب الفكر المتطرف الأول، فهما فريقان:

– فريق يمنع الحداثة الشاملة للأمور الدينية والدنيوية، فيمنع استخدام الهاتف والتلفاز ونحو ذلك من الأمور التقنية الحديثة بدعوى أنها لم تكن في زمن النبي ﷺ.

– وفريق يمنع المحدثات في أمور الدين من غير تفريق بين بدعة سيئة مناقضة للشرع وبدعة حسنة موافقة له، فيعتبر أن كل من أحدث أمرًا في الدين مبتدع ضال مذموم مطلقًا، من غير تفصيل هل ما أحدثه يوافق الشريعة أم يخالفها، وهذا خلاف قول رسول الله ﷺ : "من

سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء .. "[٢].

فكانت نتائج هذا الفكر التكفيري واضحة في ممارسات بعض الشباب العنيفة في أنحاء شتى من البلاد.

أما أصحاب الفكر المتطرف الثاني :

فإن فساده يكمن في تكفير الدولة، ومن ثم دعوة الشعب إلى الثورة المسلحة، وضرب كل مفاصل الدولة، وقتل أفراد الجيش والشرطة، فإن لم يستجب الشعب لهذه الدعوة اعتبروه بسقيم عقلهم وضلال فكرهم كافرًا مهدر الدم والمال والعرض.

ويعتمد أصحاب هذا الفكر المتطرف على إستراتيجية رسمها منظروه عبر كتب انتشرت وترجمت إلى لغات مختلفة، وهي تحمل في طياتها بطاقات التكفير للمجتمع المسلم، ومن ثم وجوب قيام ثورة عليه لتغيير المجتمع الجاهلي في زعمهم وإقامة الحكم الإسلامي الذي يزعمون زورًا وعدوانًا، وينشرون ذلك في المنتديات والجامعات والمعاهد والدوريات كألغام وأفخاخ تسحق العباد وتدمر البلاد، بدل تصدير العلم الشرعي الصحيح والأخلاق الحسنة، والفكر المنفتح علي العلوم العصرية النافعة، والحضارة التي يشهد لها تاريخها بالرقي، كل ذلك عبر الشريان الأساسي ألا وهو العلاقات المبنية على العلم والحق والاعتدال والوسطية والانفتاح، فإن كان هذا حالهم في بلدان العالم الإسلامي فكيف يخاطب هؤلاء الدول الأخرى، وكيف تكون العلاقات الدولية وعلى أي أساس!!

ولسنا نقع في التجني والشطط إذا قلنا: إن فكر تكفير الحاكم والمحكوم هو من أبرز ظواهر التطرف – في النصف الثاني من القرن العشرين – التي تركت بصمات واضحة وآثارًا جلية في مناهج معظم الحركات المتطرفة في الوطن العربي والإسلامي.

كما أن التحريض على القتل كان هو المرتكز الأساس عندهم، لأنهم يعتبرون المجتمع جاهليًّا، فكانوا يكفرونه، بل كانوا يكفرون كل من اختلف معهم، إلى حد تكفير بعضهم بعضًا، فأي علاقات سيقيمونها بعد ذلك؟، وأي نظام سيطبقون وقد بدأوا باغتيال الشعب قبل

الوصول إلى السلطة؟! ومتى صار كل من يحفظ آية شيخًا يفتي وزعيمًا يقود؟ ومتى صارت بيانات جماعاتهم مصدرًا للتشريع؟ إن هي إلا ضلالات يغذيها التطرف والغلو والجمود والأهواء السقيمة.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن تنامي الحركات المتطرفة باسم الإسلام في النصف الثاني من القرن العشرين ينسجم مع ما يخطط له أعداء الأمة الذين يسعون لإلصاق تهمة أعمال العنف – أو ما يسمى الإرهاب – بالعالم العربي والإسلامي، وذلك من خلال هذه الجماعات المتطرفة التي تتعدد أسماؤها قطريًّا ضمن كل بلد موجودة فيه، ولكنها تبقى مجتمعة في تنظيم عالمي محطاته الرئيسية في الدول الصناعية الكبرى، حيث تعقد المؤتمرات، وتجمع التبرعات، وترسم الخطط ...إلخ.

إن هذه الجماعات المتطرفة ظاهرة أمنية سياسية خطيرة تتستر بالدين، وتتآمر على أوطانها، وتمارس الإجرام، وهي حركات عنف ذات أهداف مضللة للوصول إلى السلطة زورًا وعدوانًا، وهي ذات تلقين فكري متطرف، تحركها وتدعمها قوى مشبوهة، فحركتها مطلب لقوى خارجية تعلم أن المتطرفين يلعبون دور البديل عن الغزو العسكري المباشر للدول التي ينشطون فيها، ويستنزفون قدراتها العسكرية والاقتصادية والأمنية ، حيث إنهم حين يصلون إلى السلطة وفي رؤوسهم الأفكار المتطرفة سيقدمون ذريعة للغزو العسكري المباشر.

مما لا شك فيه أن خطر الحركات الإرهابية المتطرفة بات ظاهرًا للعيان، جليًّا لكل ذي لب وبصيرة، واضح الأساليب والأهداف الرخيصة، لا سيما أنه تستر بستار الدين، والدين منه براء، وقد انتشر وتفشى شر هذه الحركات في العديد من الدول وتوسع خطرها؛ لذا فإنني أقترح قبل صياغة علاقة دولية أن نعيد صياغة العلاقة الخاصة فيما بيننا، وأبرز معالم هذه الصياغة أن ننفي الخبث فيما بيننا، وأن نحذر من المنكر الهائج كالأمواج تحت عناوين كثيرة برزت، فمرة يقال: إنها الصحوة الإسلامية زورًا وبهتانًا، ومرة تحت عنوان الحركات الجهادية جهلاً وافتراء، إلى غير ذلك من الأسماء البراقة، حيث إن التحذير من مثل هؤلاء هو واجب شرعي وليس من باب الغيبة المحرمة، وقد بيّن لنا ﷺ هذا السبيل بقوله: " حتى متى ترعون عن ذكر الفاسق هتكوه ليحذره الناس "(٣).

إن التطرف الذي غدا سمة هذا العصر هو بمثابة المرض الذى خرج عن السيطرة، وأكثر ما يُنسب للمسلمين على الرغم من وجود التطرف في كل الملل والنحل والمذاهب الأخرى؛ لذا فعلينا أن نَهُبَّ جميعًا لنأخذ على يد كل من أراد أن يخرق السفينة وأن نُحذِّر الأمة من شرهم وبغيهم وضلال أفكارهم، فعدم التحذير من مثل هؤلاء يهدد منظومة الوحدة الإسلامية، فلا وحدة بين الأفاعي والحمائم ولا بين الحملان والذئاب، والقاعدة الذهبية في هذا الشأن قول الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾(٤).

بناءً على ما مر وسلف فإننا نقدم مقترحاتنا فى بنود مختصرة؛ لدرء مخاطر هذه الحركات الإرهابية المتطرفة:

١- التدرج في تثقيف الشعب بالثقافة والعلم الديني، مع شرح المفاهيم الإسلامية العظيمة التي تشكل منهجًا معتدلاً بعيدًا عن كل غلو وتطرف، ويكون ذلك اعتبارًا من فئة الناشئة والأطفال مرورًا بفئة الشباب وصولاً لكبار السن، فالعمل المنظم المتدرج سيكفل بإذن الله تعالى صد هذه الجماعات المتطرفة، وتقويض بنيانهم ، والحدّ من توسعهم وانتشارهم؛ لأنهم سيجدون أنفسهم بمواجهة الشعب الذي يرفض أفكارهم التي تعارض ما تعلمه من المفاهيم السليمة في المدارس والجامعات والمعاهد وفي الوسائل الإعلامية والنوادي والمنتديات.

٢- اعتماد سلسلة من الكتب والمراجع الدينية العلمية المعتدلة ونشرها في كل المؤسسات التربوية وسائر المرافق التابعة لها .

٣- اعتماد سلسلة من المحاضرات والبرامج العلمية المعتدلة التي تستقطب المتفرج والمستمع عبر التلفزيونات والجرائد والمجلات والإنترنت.. إلخ، مع وضع الرد العلمي بالأدلة العقلية والنقلية، وفضح أسماء المتطرفين ومؤسساتهم.

٤- تبادل المعلومات عن هؤلاء المتطرفين مع بقية الدول ومتابعتهم وملاحقتهم بالتنسيق مع الدول الأخرى مما يضعف شبكة المتطرفين، مع المتابعة لأمورهم القانونية واكتشاف الثغرات فيها، وبالتالي تفكيك خلاياهم ومؤسساتهم وتنظيماتهم بالقانون، خصوصًا

تلك التي تجلب لهم الدعم المالي لأنه العصب الأساس عندهم الذي يحركهم .

وختامًا، أُذكر نفسي وإياكم بما ذكره الحق سبحانه وتعالى عما أعده للذين آمنوا في الدنيا، يقول تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٥] هذا عن الدنيا، أما عن الآخرة فيقول تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٦].

الهوامش:

---

(١) البقرة: ١٤٣ .

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، حديث رقم ١٠١٧.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ،حديث رقم ٤٣٧٢، وقال الهيثمي في المجمع، ١٤٩/١:حسن.

(٤) المائدة: ٢.

(٥) النور: ٥٥ .

(٦) القصص: ٨٣.